

مثل أبي، متناهية في الصغر، منطوية على نفسها في الخلاء ومشبوحة بين المدائن، تقع في المسافة ما بين القصارف والندندر، ليس بها سوق ولا مخبز ولا جزارة، وتعتمد في تأمين حاجتها من ماء الشرب على قطار مخصوص يسميه ناس السكة حديد بقطر الموية يغشاها مرة في الأسبوع فقبل منه عروقتها وتملاً منه فنتازين كبيرين يستقي منهما إنسان البلدة وحيوانها كما لو أن البلدة هي في الاصل معسكر مؤقت لجيش زاحف، لا بد له من جبراة لصق البيت يعتني بشتولها لتزوده بالخضروات، ولا بد له في البلدات من مزرعة يفلحها لتؤمن له الخبز من محصول الذرة الرفيعة اضافة لما تغله من السمسم وعيش الريف والعنكوليب والتبش، ولا بد له كذلك من تربية الدواجن وسعاية الأبقار لسد حاجته من البيض واللحم واللبن حليبه ورائبه. لم يكن للحصيرة نهر يغذيها بالأسماك. ووجد محولجيتها هواية لهم ومصدراً غنياً باللحوم في التربص بالطيور العابرة لسماء البلدة، يشتتون لها الحبوب، يُشركون لها بضروب من الحيل ناصبين لها الشبكة الكبيرة يغرزون أوتادها في البرية المحازية للسكة حديد، فتهبط الطيور المجهددة من التحليق الطويل في كماشة الارض. وهناك وفرة في دجاج الوادي الذي يمكن اصطياده في غابة مجاورة للحصيرة أول ما سكنا في الحصيرة لم نكن نملك إلا الدواجن. وكان الجميع في جيرتنا تقريباً يملكون حظائر عامرة بالأبقار، بل وكان منهم من له مراح كامل من الأبقار مثل ناس فطنطون وهم أسرة قديمة في الحصيرة ترجع أصولها إلى قبيلة الفلاتة. برزت الحاجة عندها ماسة لتربية الأبقار. فاستعان أبي برجل من أهل القرى المحيطة كان يكثر من غشيان المحط ليستقل قطارات الشحن التي تمر بها لترحيل مخزونه من الذرة الرفيعة إلى أقرب مدينة بها سوق للمحاصيل مثل سنار أو القصارف أو الندر. اتفق أبي مع الرجل على شراء بقرة حلوب وعد الرجل بجلبها مشياً على الاقدام مقابل أن يدفع له أبي عشرين جنيهاً. وبعد أسبوع أو نحوه أوفى الرجل بوعدته وأحضر إلى المحط بقرة تسرُ حمرتها الناظرين قطع بها البراري المعشبة. بحث الرجل عن أبي فقيل له أن أبي قد ذهب إلى الندر لجلب لوازم الشهر من سوقها، فقام الرجل بربط البقرة إلى شجرة النيم الوريقة القائمة في المحط أمام مكتب الإدارة بعد ان اوصى بها المحولجية الثلاثة الحاضرين آنذ وهم عبد اللطيف ورحمة الله وعبد المعز. اعتنى المحولجية ثلاثتهم بالبقرة وجليبوا لها حزمة من القش وسطلاً به ماء حتى وصل أبي في أول المساء وترجل من القطار وقاد البقرة من وثاقها وأدخلها الحظيرة التي أقامها من الشوك خلف البيت. ملأت علينا دنيانا بفتوتها وخوارها وصارت مدللة الأسرة بلامنازع، حضرة أكلت الامياز، حضرة شربت، حضرة مالها اليوم لا تبدو على مايرام؟ كسلانة ولاعيانة؟ فما العمل؟ ينزعج أبي غاية الإنزعاج، ولا يهدأ له بال إلا بعد أن يطلب النصح من ناس فطنطون أسياد مراح البقر الكثير فينصحونه بعمل شيء ما يجعل حضرة تتعافى وتنهض على قوائمها وتقبل على القش المكوّم. أرى وأتعلم أولى دروسي في الحياة من أبي شيال الثقيلة، بشعرة الاجعد الفاحم السواد، يسد عين الشمس، عندما وافته المنية في ليبيا كتب لي خالي عادل وهو يعزيني مايلي: مثلما عاش ابوك في هدوء، رحل في هدوء. مقابل اجر شهري قام أبي بتسليم حضرة لراع يدعى عطية وهو شاب طيب وهميم من قرية قريبة من الحصيرة. اضاف عطية حضرة لقطيع الأبقار التي يخرج بها إلى المراعي في كل صباح. وكان في بعض الأحيان يغشى الغاية في طريق عودته بالأبقار قبل المغيب لي جلب لي من أشجارها المُستففة بأعشاش الطيور صرّات من النبق والللوب ومايجده من سيمبر وهو وهدهد وطير خداري لأضيافها فخوراً إلى ما ملكته وقتها من تشكيلة طيور كنت أحتفظ بها في قفص كبير جلبه لي أبي. استطابت حضرة حياتنا في الحصيرة. وصار لها جباناً في قطيع ناس فطنطون. وتجلت خصوبتها فاسعدتنا بولادة العجول. وزاد إنتاج لبنها وفاض حتى غمر جيراننا الاقربين منهم الحيطه بالحيطة والابعدين محدثا تغييرا ملحوظا في مطبخنا. من بين ما ولدتهم حضرة أسرني عجل فريد يشبه أمة ملك علي أقطار نفسي فافتنتت به واصطفيته بالتردد، وصار هوساً لي هو والطيور أرقب نموه معجباً باكتسابه القوة حتى كبر وصار يخرج للمرعى القريب مع أصحابه من عجول ناس فطنطون الذين كانوا يأتون إليه ويتجمعون أمام حظيرتنا وينادونه بخوار منعم يفهمه ويستجيب له. مثلما يفعل الغدأرون من بني الانسان، برفسة قوية مفاجئة، أصابت جبهتي ودممتها وصرعتني وألقت بي على كومة القش المكوّم والأمياز حتى تم انقاذي وانتشالي من الحظيرة وبنقلي إلى الشفخانة القريبة من المحط حيث عالجنني الحكيم وقتها أحمد بقاري. عند رحيلنا إلى كسلا عام 1975 في مقطورة يجرها قطر بضاعة كان الوقت ظهراً. بعد وداعنا للجيران والأحباب تحررنا تترجرج بنا المقطورة التي احتوتنا مع أثاث البيت وقفص طيور. الحاجز. ثم كسلا بسواقيها الخضراء في ذلك الزمان وقاشها الغاضب وجبالها المبروكة. أنعشنا هيوب الأنسام. سرت في ابداننا انسام السودان كالمخدر فغفونا تهددنا اسماء المحطات الخلوية، وتمرجحنا ذات اليمين وذات الشمال رجرجة القطار المسافرين. قبل رحيلنا من الحصيرة واجه أبي معضلة ترحيل أبقارنا إلى حلفا الجديدة حيث تسكن والدته وجدتي فاته سادق. كانت الحصيرة وقتها معزولة وليس بها وسيلة ترحيل. كان أبي قاب قوسين من التخلص من الأبقار ببيعها في الحصيرة بأي ثمن عندما تصدى الراعي عطية للأمر وأخبر أبي أنه سيسوق

أبقارنا ويوصلها مشياً على الأقدام حتى يسلمها لجدتي في حلفا الجديدة. تلك كانت هدية لاتقدّر بثمن قدّمها عطية لأبي وقرّر أن يخاطر بنفسه ويقطع تلك المسافة الهائلة على درب لم يعرفه من قبل. آه، يا دروب الرعاة في بلدي الحبيب زوّد أبي عطية بلوازمه من الطعام والمصاريف وأوصى زملاءه في كل المحطات ان يحسنوا وفادته عندما يمر بهم للمبيت والتزود بالماء. انطلق عطية في يوم رحيلنا نفسه ولكن في الساعات الاولى من الفجر تتبعه الأبقار في مقدمتها حضرة. فخطر له أن يبلغ أبي رسالة أودعها عند ناظر المحط في المتنا. اخبره فيها أنه عائد الى الحصيصة مع الأبقار التي تمرّت عليه. ولما وصلها كان الوقت ليلاً. كان في استقباله حسب الله ناظر المحط الجديد ومعه المحولجية الثلاثة. تفقد أبي الأبقار فوجدها قد دخلت الحظيرة. فقضى ليلته في ضيافة المحولجية. واستقل قطاراً للشحن ولحق بنا في القصارف، تاركاً عطية يكمل المسير وحده حتى وصل إلى قريتنا في البطانة. وصل بأعجوبة بعد مسيرة شاقّة إستمرت عدة أيام ، ينام في العراء متوسداً ساعده، متسلحاً بعكازوسكين في جفيرا مربوطة في الضراع. وصل إلى قريتنا بعد عناء شديد متتبّعاً مسار القطار لاينحرف عنه خشية التوهان. وعندما يلم به العطش أو يكبس عليه (أي يدهمه) الليل المظلم أبوكديس. كان يغشى أقرب محط في طريقه ليروي ظمائه ويتزود من خيارات سلسلة التضامن بين عمال السكة حديد. يوقد عطية النار ويتناول عشاءه ويرقد محاذراً ألا يستغرقه النوم فتنتهز الأبقار السانحة وتشرّد اويصيبها مكروه من مخلوقات الليل الشريرة. نجح عطية في الاختبار بفضل شجاعته وقوة التضامن العمالي الذي وفر له سلسلة متينة لاتنقطع من الغوث خففت عنه مشاق السفر حتى بلغ قريتنا البعيدة المندسة في البطانة بين الترع والمزروعات سالمأ معافى دون ان يمسه ضرٌّ ووقف امام بوابة بيت جدتي كثرّ الشعراغبره مرتدياً سروالاً وعراقي ابيض اللون ومركوباً احمر من جلد البقر. وسلّم جدتي الأبقار كاملة العدد وهو يقول لها: البقر دا أمانة من ولدك محمد يا حاجة. تناول ماقدم له من طعام وشراب ثم قفل في الحال عائداً إلى الحصيصة في حظيرة جدتي في البطانة عاشت حضرة أعواماً زاهية ولدت فيها المزيد من العجول ومنحت اللبن حتى رجعت ذات يوم من المرعى بضرع مثقوب يسيل من الحليب بعد ان ثقبته الأشواك في الطريق. فلم تجد جدتي مناصاً من بيعها وحليبها المشلشل يبلل التراب.